

(عباسي) الاحتلال
ضُرِبَ في البصرة أم البلاد

آزاد اسكندر – العراق

من؟ وأين؟ ومتى؟

كريم خان الزند.
البصرة، ١٧٧٥-١٧٧٩م.

البصرة هي الجائزة، ملتقى ثروات العالم وتقاطع طرقه. بدأت معسكرًا للمسلمين سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م، وبلغت ذروة ازدهارها في عهد الرشيد. لكنها لم تعد كذلك حين احتلها كريم خان الزند بجيوش فارس بعد أكثر من ألف عام على تأسيسها، البصرة كانت حينها الرهينة.

قبلها بحوالي قرن ونصف من الزمن، أرسل عباس الصفوي جيشًا لاحتلال البصرة، لكن الجيش عاد أدراجه قبل أن يبلغ أسوارها، لأن الشاه مات وجيشه في الطريق. كان ذلك سنة ١٦٢٩م، بعدها تراجعت الدولة الصفوية شيئًا فشيئًا إلى أن قُضِيَ عليها سنة ١٧٢٢م، فدخلت بلاد فارس في فوضى، وساد التقاتل للوصول إلى العرش. بعد أمد برز نادر شاه فأسس دولة، وهاجم بغداد والموصل والبصرة دون أن يظفر بأيٍّ منها. ثم ما لبث أن اغتيل سنة ١٧٤٧م، فغرقت بلاد الفرس في الفوضى مرة ثانية.

من بين المنافسين على العرش هذه المرة، رجل اسمه كريم خان. أمسى مقاتلًا في جيش نادر شاه في الثلاثينات من عمره، بعد أن هَجَّرَ نادر شاه قومه من جبال زاكروس إلى خراسان. ما إن اغتيل هذا الأخير حتى عاد كريم خان بعشيرته إلى ديارها وقد أصبح رئيسها. ومن هناك انطلق لإخضاع أنحاء إيران، فدانت له جميعًا ما عدا خراسان. وبحلول سنة ١٧٦٥م، كان قد تخلص من خصومه وأعلن شيراز عاصمةً لدولته، مبقيًا على إسماعيل الثالث سليل الصفويين حاكمًا بالاسم فقط، بينما اتخذ هو لقب (وكيل الرعية).

في هذه الأثناء كانت بغداد والبصرة تَمُرّان بمرحلة الولاة المماليك. كان هؤلاء يُجلَبون من القوقاز كَعبيد، ويخضعون منذ الصغر للتدريب والتأهيل، فمنهم من امتهن العسكرية ومنهم من تدرج في مناصب الدولة، حتى أصبح بعضهم من الولاة. تمتع الولاة المماليك في العراق بدرجة كبيرة من الاستقلالية عن السلطان العثماني، سيدهم بالاسم والفرمان دون الحقيقة.

حين عزم كريم خان الزند على احتلال البصرة كان عمر باشا، وهو أحد أولئك المماليك، واليًا على بغداد. الحجة التي تذرع بها للشروع في الغزو، هي تضييق عمر باشا على الفرس المقيمين في بغداد، وفرضه رسومًا على زوار المراقد الدينية من الفرس، الذين يُعفَون من الضرائب والرسوم بناءً على اتفاقية سابقة.

أما أسباب الاحتلال فمتعددة، منها ما ارتبط بحركة التجارة في الخليج، أو بمعنى أدق تحول التجارة من بوشهر وبندر عباس الإيرانيتين إلى البصرة، بالإضافة إلى هجرة الكثير من التجار من إيران إليها. من ناحية ثانية أراد كريم خان أن يحقق مكاسب عسكرية تمحو إخفاقات سابقة. ومن ناحية ثالثة تعلق الأمر بالصراع على المناطق الكردية الواقعة بين مطرقة الفرس وسندان العثمانيين، تلك المتاخمة للحدود بين الدولتين. في الواقع لم يرسل كريم خان جيشًا واحدًا بل جيشين، أحدهما إلى البصرة والآخر إلى كردستان. حيث دعم كريم خان من جهة، وباشا بغداد من جهة أخرى، مرشحيهما لحكم المناطق الكردية المحاذية للحدود بين الدولتين.

وهكذا فإن كريم خان أراد أن يحقق مكاسب اقتصادية وعسكرية وسياسية من هذا الاحتلال الشبيه بفَكَّي كماشة.

أرسل كريم خان أخاه صادق خان على رأس جيش قوامه من ثلاثين إلى خمسين ألف رجل. تحرك الجيش من شيراز ووصل إلى شط العرب في آذار ١٧٧٥م/ محرم ١١٨٩هـ ثم عبر الشط في الشهر التالي متجهًا إلى البصرة. وصلت طلائعه في السادسة من صباح السادس من أبريل، وبقية الجيش على مدى يومين، فَبُوشِرَ بضرب الحصار.

لنتوقف قليلًا هنا وننظر في ظروف البصرة والأجواء المحيطة بها، والمؤثرين في أوضاعها في ذلك الحين. أول ما سنراه في المشهد هو الطاعون الذي ضرب العراق في السنتين السابقتين على الحصار، فقضى على مئات الألوف، ما أدى إلى تراجع التجارة والقدرة العسكرية على المقاومة. فإذا نظرنا إلى أسوار المدينة وجدناها متداعية تفتقر إلى الصيانة.

متسلم البصرة التابع لوالي بغداد هو سليمان آغا عندئذ، أحد أبرز المماليك وأكثرهم نشاطًا وحنكة. أما العشائر فانقسمت بين المدافعين والمهاجمين، عشائر المنتفق وبنو خالد أخذت جانب المدينة، أما الخزاعل وبنو كعب فانحازوا إلى مهاجميها.

كريم خان مع حاشيته



في المقابل، طالما تنافست الشركات الأوروبية لفرض نفوذها على الخليج الذي يُعتَبَر حلقة مهمة في سلسلة المصالح التجارية الممتدة من أوروبا إلى الهند، فمارست نفوذًا سياسيًا وعسكريًا بالإضافة إلى نفوذها الاقتصادي. حين حاصر صادق خان أسوار البصرة كانت (شركة الهند الشرقية) البريطانية هي الأقوى في المنطقة بين تلك الشركات.

في الطرف الآخر من الخليج، كان العُمانيون شركاء تجاريين وحلفاء للبصريين، إذ تمر التجارة المنطلقة من البصرة إلى الهند بمرافئ عُمان كمحطة أساسية على الطريق، لهذا جمعت بين الطرفين مصالح مشتركة.

ضرب صادق خان حصاره على البصرة، وبعدها بيومين اقتربت سفن بني كعب لمساندة الإيرانيين، ثم في اليوم التالي جرت في الثانية صباحًا أول محاولة لاقتحام الأسوار. انتهت المحاولة بالفشل ومقتل مئة إيراني وثلاثين بصريًا، فارتفعت معنويات المدافعين.

لكن عشائر المنتفق انسحبت من مواقعها في الزبير فجأةً. وفي الوقت نفسه كانت (شركة الهند الشرقية) تتردد في اتخاذ قرارها النهائي بمساندة البصرة، أو الانسحاب تفاديًا لمواجهة الفرس وتهديد مصالحها، إلى أن اتخذت الشركة قرارها بسحب سفنها من جوار البصرة إلى بوشهر، فتمكنت سفن بني كعب من التقدم والمساعدة على إحكام الحصار.

في منتصف أيلول من السنة نفسها، وصل إلى شط العرب أسطول عماني مكون من أكثر من مئة سفينة، مزودة بالمدافع ومحملة بالمقاتلين والإمدادات للبصريين. لكن الفرس بمساعدة حلفائهم من العشائر، مدوا سلسلة بين الضفتين لمنع العمانيين من التقدم. فبقي الأسطول العماني راسيًا هناك، إلى أن هبت في أحد الأيام رياح قوية كسرت السلسلة. فتقدم الأسطول أخيرًا ليصل في الرابع عشر من تشرين الأول إلى أسوار المدينة المحاصرة.

الامدادات التي جلبها العمانيون ساعدت في إطالة أمد المقاومة، لكن الأسطول العماني لم يقدر على فك الحصار، لأن المعارك والمناوشات التي خاضها لم تكن حاسمة. استمر هذا الوضع إلى أوائل سنة ١٧٧٦م، حين قرر العمانيون العودة إلى مسقط. وهكذا تُرِكَ البصريون لمصيرهم، إذ لم يكن من أمل إلا في وصول المدد من بغداد. المدد الذي ما زال سليمان آغا متسلم البصرة يطالب به،وباشا بغداد يَعِد به منذ بداية الحصار. السبب الرئيسي الذي منع والي بغداد من إرسال المدد إلى الآن هو انشغال قواته بصد الهجوم الفارسي من جهة كردستان، الهجوم الذي يشكل خطرًا أكبر على بغداد.

بعد وعود كثيرة، أرسل والي بغداد بعض التعزيزات العسكرية إلى البصرة أواخر سنة ١٧٧٥م، فتطوع الخزاعل لملاقاتها والتصدي لها لصالح الفرس، جرت المواجهة في جوار الحلة فأسفرت عن هزيمة قوات بغداد، وانقطاع الأمل.

اشتد الحصار وجاع الناس حتى أخذوا بالخروج في جماعات من المدينة، ملتجئين إلى معسكر العدو.

كما آثرت العشائر أن تهادن وترتب أوضاعها مع صادق خان. حتى الحامية التي يُفتَرَض بها أن تدافع، أخذ أفرادها بالتسلل، وتواصل قائدها سرًا مع العدو ثم انتهى بتسليم نفسه. فلم يجد سليمان آغا مفرًا من التفاوض على شروط الاستسلام، الذي تم يوم ٢٦ صفر ١١٩٠هـ/ ١٦ نيسان ١٧٧٦م. دخل صادق خان المدينة بعد حصار دام لثلاثة عشر شهرًا، فأرسل سليمان آغا وبعض الوجهاء إلى شيراز كرهائن، واعدًا بحفظ الأرواح والممتلكات.

عباسي الاحتلال:

هناك في البصرة المنكوبة، ضُرِبَت النقود إيذانًا بالعهد الجديد، ومن بينها هذا الـ(عباسي) شديد الندرة من مجموعتي الشخصية. (انظر الصورة رقم ١).



الصورة رقم ١

مركز الوجه:
لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله.

أعلى الظهر: يا كريم.

مركز الظهر: ضرب في بصرة أم البلاد ١١٩٠.

المعدن: فضة.

الوزن: ٤.٧١ غم.

تصنيف الندرة: RR

تتصف نقود كريم خان الزند بخلوها من التصريح باسمه، على أن عبارة (يا كريم) التي تعلو عادةً جهة الظهر منها، وإن كانت من باب الدعاء، تشير إليه بشكل غير مباشر. كذلك، اتصفت نقوده بإضفاء الألقاب على بعض المدن التي ضُرِبَت فيها. فكما أن البصرة أم البلاد، تبريز دار السلطنة، وأصفهان دار العلم، وهكذا. (انظر الصورة رقم ٢)



الصورة رقم ٢

العباسي من الفئات الفضية الرئيسية منذ عهد الصفويين، كان عباس الصفوي أول من ضُرِبَ في عهده فسمي به. وبشكل عام يمكن اعتبار النظام المالي الزندي امتدادًا للنظام المالي الصفوي، ثم للنظام المالي الذي استحدثه نادر شاه، ووارثًا لمشاكل هذين النظامين.

يعتمد النظام المالي الموروث عن الصفويين على وحدات محاسبة، وهذه ليست

نقودًا بل مقاييس للقيمة. وحدة المحاسبة بالنسبة للفئات الفضية هي التومان. أما وحدة الوزن المعتمدة فهي النخود وهذه تساوي ١٩٢ ملغ دائمًا. (١) لم يُلغَ العمل بالنظام المالي الصفوي بعد اندثار دولتهم سنة ١٧٢٢م، بل استمر العمل به، ثم أضاف نادر شاه سنة ١٧٤٠م، نقودًا على المعايير الهندية، في محاولة للمزواجة بين النظامين الفارسي والهندي، لتسهيل التجارة مع الهند.

في الوقت نفسه، كانت إيران تعاني من قلة السيولة النقدية منذ أيام الصفويين. وتفاقم الوضع في أيام نادر شاه من قلة السيولة إلى ندرتها. السبب الرئيسي في هذه المشكلة هو اختلال الميزان التجاري مع الهند، إذ فاقت قيمة الواردات من الهند إلى إيران قيمة الصادرات بالاتجاه المعاكس، ما أدى إلى نزيف السيولة النقدية.

لمواجهة هذه المشكلة، حاول كريم خان أولًا إيقاف تصدير النقود من خلال منع التعامل بها في التجارة الخارجية، وفرض التعامل بالمقايضة، لكن تطبيق هذا الإجراء لم يكن عمليًا. لذا لجأ إلى تخفيض قيمة نقوده، كي يقلل من الجدوى المالية لتصديرها إلى الهند. في نهاية المطاف، لم تفلح هذه الإجراءات في حل المشكلة، التي استمرت إلى مطلع القرن التاسع عشر.

ضرب الزنديون الفضة والذهب في البصرة، من ١١٩٠ إلى ١١٩٢هـ. الفئة الفضية الوحيدة التي ضربوها هناك هي العباسي على الطراز المبين أعلاه، أما الذهب فجاء على فئتين، ربع المُهُر ونصف المُهُر. ضُرِبَ ربع المُهُر على الطراز نفسه الذي ضُرِبَ عليه العباسي، أما نصف المُهُر فضُرِبَ على الطراز نفسه وعلى طراز آخر أيضًا (٢). نُقِشَ على مركز الوجه منه بيتان من الشعر، ترجمتهما من الفارسية تنص على أن: الشمس والقمر أصبحا ذهبًا وفضة في أرجاء الأرض / بنقود الإمام الحق صاحب الزمان. علمًا أن المُهُر ومشتقاته من الفئات المضروبة على المعايير الهندية، التي أدخلها نادر شاه من قبل إلى إيران.

فإذا أخذنا بالنظر والاعتبار ما يذكره جون بيري في كتابه (كريم خان الزند، تاريخ إيران ١٧٤٧-١٧٧٩) من أن «الدخول المظفر لصادق خان إلى البصرة تكلل بضرب النقود باسم كريم خان وعليها ذكر صاحب الزمان» أي المهدي. تبين أن المقصود هنا هو نصف المُهُر من الطراز الذي يحتوي على بيتي الشعر المذكورين..

من جهته يذكر عباس العزاوي في كتابه (تاريخ العراق بين احتلالين) نقلًا عن أحد المصادر الإيرانية، أنه بعد دخول صادق خان إلى البصرة «ضُرِبَت النقود بأسامي الأئمة الاثني عشر.». وهذا ما لم أجده في أيٍ من المراجع أو النقود الزندية المعروفة من سنوات الاحتلال.

أما ما يذكره عمر دلر في كتابه (دور الضرب الإسلامية)، عن وجود قطعة ذهبية من ضروب الزنديين في البصرة سنة ١١٩٦هـ فمن أخطاء السك، فسنة الضرب ١١٩٦ التي يشير إليها ليست سوى ١١٩٢، بحيث يظهر الرقم ٢ معكوسًا، بسببِ خطإٍ في نقش القالب الذي ضُرِبَت عليه. وهو ما يشير إليه ستيفن ألبوم في كتابه المذكور آنفاً (Checklist of Islamic Coins).

تداعيات الاحتلال ونهايته:

ما إن دخل المنتصرون إلى المدينة حتى بدأت أعمال النهب المعتادة، وفرض كريم خان على الأهالي «تعويضًا» مقداره ١٢٨ ألف تومان، أُخِذَت النسبة الأكبر من هذه الغرامة من التجار الأغنياء والوجهاء والزعماء الدينيين، الذين بدورهم مدوا أيديهم في جيوب الفقراء أيضا. كان العبء ثقيلًا إلى درجة أن بعض الناس باعوا أطفالهم وآخرين انتحروا من وطأته.

غادر صادق خان إلى شيراز أواخر سنة ١٧٧٦م، تاركًا ٧٥٠٠ رجل على رأسهم علي محمد خان الزند، الذي جعله حاكمًا على البصرة. كان هذا وحشًا، فرض المزيد من الضرائب ونَكَّل بالأهالي، فلم يتورع عن التقتيل والخطف والاغتصاب. حتى وصل عدد السكان إلى٥٠٠٠ نسمة لا غير، ووصلت المدينة إلى القاع. فتحول الحاكم الوحش عندئذ إلى نهب المناطق المجاورة، هنا حدث الصدام مع عشائر المنتفق.

هاجم الحاكم الجديد عشائر المنتفق ونهبها، فَرَدَّت هذه الأخيرة بكسر السدود لإغراق الصحراء المجاورة، ومهاجمة مجموعة من الجنود وقتلهم. فَرَدَّ الحاكم الوحش بمهاجمة الزبير ونهبها وإحراقها، وقتل رجالها واستعباد نسائها وأطفالها. ثم توجه بستة آلاف فارس لمواجهة المنتفق وسحقهم.

استدرج مقاتلو المنتفق مهاجميهم إلى منطقة مختارة قرب شط العرب، على بعد حوالي ٢٥ كيلومترًا من أسوار البصرة. وفي الحادي عشر من أيلول ١٧٧٨م وقعت الواقعة. استُدرِجَ المهاجمون لعبور الشط فانتهوا إلى فخ. وجدوا أنفسهم في مكان تحيط به المياه من ثلاث جهات، ومقاتلو العشائر في الجهة الرابعة. هجم الفرس فاقتيدوا إلى مستنقع غاصت فيه خيولهم فأصبح قطافهم سهلًا. لم يَنْجُ منهم سوى بضعة أفراد، أما الحاكم الوحش فقضى بضربة قاتلة في العنق. ما أن وصل المرسال بالخبر إلى صادق خان في شيراز، حتى عاد مسرعًا بصحبة أربعة آلاف فارس. أمست البصرة الآن حُطامًا، أو كما كتب الرحالة الإيطالي سيستيني «مدينة البصرة محطمة، لقد دمرها الفرس تمامًا.» على أن هذا لم يكن هو ما يقلق صادق خان.

دارت الإشاعات منذ أمد عن مرض كريم خان، وفي أحد الأيام أغمي عليه وسقط عن حصانه فأُسعِفَ دون جدوى، كان هذا رقوده الأخير. مات كريم خان ليلة الثالث عشر من صفر ١١٩٣هـ / الأول من آذار ١٧٧٩م. انسحب الفرس عندها من البصرة، وهرع صادق خان عائدًا إلى إيران للمطالبة بالعرش الذي لم يكن هو المطالب الوحيد به. انغمس المطالبون الكثر في صراع دام خمسَ عشرة سنة، انتهت بقيام دولة القاجاريين. الذين استمر حكمُهم إيران إلى سنة ١٩٢٥م.

في العراق، أرسل والي بغداد متسلمًا إلى البصرة بعد انسحاب الاحتلال، لكن سليمان آغا المتسلم السابق، العائد من الأسر في شيراز، كانت له كلمة أخرى. استعاد سليمان منصبه، ثم أصبح واليًا على بغداد أيضًا. ليُعرَف بعدها بسليمان باشا الكبير، أحد أهم الولاة المماليك.

لم تتعافَ الفيحاء مما أصابها في السنوات التالية، وكان من تبعات احتلالها اضمحلال موقعها كمركز تجاري، لصالح مرافئ أخرى على الخليج.
ذهب الاحتلال ولكن بعد خراب البصرة.

(١) للمزيد عن النظام المالي الصفوي، راجع مقالة الكاتب (بيستي عباس الأول، يوم خطف الصفويون بغداد للمرة الأخيرة)، في عدد نوفمبر من مجلة المقتني العربي.
(٢) Album, Checklist of Islamic Coins, 288.

المصادر:

١- عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٤.
2- Omer Diler, Islamic Mints, Mas Matbaacilik A. S., Istanbul 2009.
3- John R. Perry, Karim Khan Zand. A History of Iran 1774-1779, The University of Chicago Press,Chicago 1979.
4- Rudi Matthee, Willem Floor and Patrick Clawson, The Monetary History of Iran. From the Safavids to the Qajars, I.B. Tauris & Co Ltd, London 2013.
5- Sir Wolseley Haige, Comparative Tables of Mohammadan and Christian Dates, Luzac & Company 1932.
6-Stephen Album, Checklist of Islamic Coins, Stephen Album Rare Coins Inc 2011.
7-Stephen Hemsley Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq, Oxford at the Clarendon Press 1925.l